﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: 52 - 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

كـلُّ صاحبـينِ قرينانِ، مؤمنَيْنِ كانا أو كافرَيْنِ أو مختلفَيْنِ

في الآيات السابقة يحكي أحدُ المؤمنين في الجنَّة لِرفاقه حوارًا دار في الدُّنيا بينه وبين قرينٍ له كافرٍ، وتستكمل الآياتُ هنا ذلك الحوارَ، فيسأله القرينُ الكافر متعجِّبًا منه، كيف يصدِّقُ بالبعث بعد أن يموتوا، ويصيروا ترابًا وعظامًا؟.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾: (صدق) أصلٌ يَدُلُّ عَلى قوَّةٍ في الشَّيءِ قَولًا وغَيرَهُ، مِن ذلكَ الصِّدقُ: خِلافُ الكَذِبِ؛ سُمّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لَهُ، هوَ باطِلٌ، وأصلُ هذا مِن قَولِهِم شَيءٌ صَدقٌ، أي: صُلْبٌ[1]، والمُصدِّق: الَّذي يَنْسُبُ المُحدِّثَ إلى الصِّدْق مُصَدِّقٌ - بِتَّخْفيفِ الصّاد - قالَ اللّه تعالى: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، وهوَ مِن تصديقِكَ صاحِبَك؛ إذا حدَّثك، وأمّا المُصَّدِّق - بِتَشْديدِ الصّادِ والدّالِ - فهوَ: المُتَصَدِّق، أُدغِمتِ التّاءُ في الصّادِ فَشُدِّدَتْ، قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ [الحديد: 18] - على قراءةِ جمهورِ القرّاء - أي: المُتَصَدِّقين والمُتَصَدِّقاتِ، وهُمُ الَّذينَ يُعطون الصَّدَقات[2]، وعلى قراءة ابن كثيرٍ، وشعبةَ عن عاصم بتخفيف الصّاد على أنَّه مِنَ التَّصديق، أي: الَّذين صدَّقوا الرَّسول ﷺ، أي: آمنوا، وامتثلوا أمرَهُ، فأقرضوا اللّهَ قرضًا حسنًا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 396.

2) ﴿وَعِظَٰمًا﴾: (عظم) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى كِبَرٍ وقوَّةٍ، فالعِظَمُ: مَصْدَرُ الشَّيْءِ العَظيم، تَقولُ: عَظُمَ يَعْظُمُ عِظَمًا... وعَظْمَةُ الذِّراعِ: مُسْتَغْلَظُها[1]، والعُظْمُ: قَصَبُ الحيوانِ الَّذي عَلَيْهِ اللَّحْمُ في الإنسان والحيوان، والجمع: أعظُمٌ بضَمِّ الظّاءِ، وعِظامٌ بالكَسْرِ، وعِظامَةٌ، والهاءُ لِتَأنيثِ الجَمْعِ[2]، قال تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: 14]، ومفرده: عَظْمَة، ودقَّ العظمَ: كسَرَهُ[3].

3) ﴿لَمَدِينُونَ﴾: (دين) أصلٌ واحِدٌ إلَيهِ ترْجِعُ فُروعُهُ كُلُّها، وهوَ جِنْسٌ مِنَ الانقيادِ، والذُّلِّ، فالدّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانه دينًا[4]، أي: أذلَّهُ، واستعبدَهُ، يقال: دِنْتُهُ فَدانَ، وفي الحديث: "الكَيِّسُ مَن دانَ نفسَه، وعَمِلَ لِما بعدَ الموتِ"[5]، والدّينُ: الجزاءُ والمكافأةُ، يُقال: "كما تَدينُ تُدانُ"، أي: كما تُجازي تُجازَى، أي: تُجازَى بِفعلك وبحسب ما عملتَ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، أي: مَجْزيّون محاسَبون، ومنه (الدَّيّانُ) في صفة الله تعالى[6]، أي: المحاسِبُ المجازي، الذي يُجازي عبادَهُ بعملِهِم، فيجزي المحسنين إحسانًا، والمسيئينَ ما يستحقّونه من عقابٍ جزاءَ ذنوبِهم[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرينُ الكافرُ لم يألُ جُهدًا في تشكيكِ قرينِهِ المؤمن في دينه وثَنْيِه عنه

يحكي النَّظمُ الكريم استنكارَ القرينِ الكافرِ قولَ قرينِهِ المؤمن، وهو يجادلُهُ في قضيَّة اليوم الآخر؛ ليثنيَهُ عن التَّصديق بالبعث والحساب والجزاء، فيسألَهُ مستنكرًا عليه مستبعدًا ذلك، فيقول

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (عظم).
(3) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عظم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(5) الترمذي، سنن الترمذي، برقم: (2459)، وابن ماجه، سنن ابن ماجه، برقم: (4260)، وأحمد، المسند، برقم: (17164).
(6) الجوهري، الصحاح: (دين).
(7) ابن منده، التوحيد: 2/ 118، وابن أبي عاصم، السنة، ص: 514.

له: أأنت مُصَدِّقٌ وموقنٌ بأنَّنا سنُبعَث مرَّةً أخرى بعد أنْ نموتَ في الدُّنيا، وبعد أنْ نَبْلَى، وتَتحلَّلَ أجسامُنا، فيصيرَ اللَّحم ترابًا، ويصيرَ العظمُ مفكَّكًا مختلِطًا، ولا تبقى لنا صورتُنا المعروفة؟

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى التَّحذيرِ مِن قرناءِ السّوء وضلالهم، وألّا تدخلَ شبههم إلى قلب المؤمن، وألّا يتشرَّبها، وأن يكون قلبُهُ صافيًا خالصًا لا يدخل إليه شيء من هذه الشُّبه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ ودلالته:

وقعت جملةُ: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ صفةً لـ ﴿قَرِينٌ ۝٥١﴾ [الصافات: 51] في الأولى، وهذا "مثالٌ للتَّحفُّظ مِن قُرَناء السّوء والبُعد منهم، قال ابن عباسٍ وغيره: كان هذا القائلُ وقرينُه من البشر، وقالت فرقةٌ: هما اللَّذان في قوله: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ [الفرقان: 28]، وقال مجاهدٌ: كان إنسيًّا، وجنّيًا من الشَّياطين الكفرة"[1].

يجب التَّحفُّظُ مِن قُرَناء السّوء والبُعد منهم

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع في: ﴿يَقُولُ﴾:

لِفاقِدِ الإيمانِ بالبعثِ والحساب والجنَّةِ والنّار حَنَقٌ على المؤمن، فلا يزالُ يجدِّدُ عليه التَّشكيكَ، ويُشيعُهُ، ويُرَدِّده كلَّما سنحتْ له الفُرصة، فالمضارعةُ في الفعل ﴿يَقُولُ﴾ تُتَرْجِم ذلك، وتَفْضَحُه، وتَكشف ما وراءَهُ مِن تربُّصِ الكافرِ به، وتَعكس محاولة تشكيكِهِ في مُعتقدِهِ ما أمكنه، فـ "يقول مكذِّبًا بالبعث مستبعدًا له غايةَ الاستبعادِ مجدِّدًا لقولهِ في كلِّ وقت... ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؟"[2].

الكافرُ يتربَّصُ بالمؤمن الفُرَصَ؛ لِتشكيكه في عقيدتِهِ

مرجعُ الضَّميرِ في: ﴿يَقُولُ﴾ ودلالته:

قولهُ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ حكايةُ قولِ القرين الكافرِ - بالبعث والحساب وغيرها مِن أمور الآخرةِ - المذكورِ في قوله قَبْلَهُ:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 102.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١﴾ [الصافات: 51]، وهو الَّذي يطَّلع عليه المؤمنُ مِنَ الجَنَّة بعد ذلك، فيراهُ في سواءِ الجحيم، كما جاء بعد آية في قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، قالوا: "وهو الذي بيَّن اللّه تعالى أمرهما في سورة الكهف: ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ [الكهف: 32]، فكانا أخوَيْنِ وشريكَيْنِ، وأنفق أحدهما مالَهُ في أمر الآخرةِ، واتَّخذ الآخرُ لنفسِهِ ضياعًا، وخَدَمًا، واحتاج المؤمن إلى شيءٍ، فجاء إلى أخيه الكافرِ يسألُهُ، فقال له الكافر: ما صنعتَ بمالك؟ فأخبرَهُ أنَّه قدَّمه إلى الآخرة، فقال له الكافر: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾، يعني: (أإنَّك ممَّن يُصَدِّق بالبعث؟) وطلب منه أنْ يدخلَ في دينِهِ، ولم يَقضِ حاجته، فذلك قوله: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث بعد الموتِ؟"[1].

الكافرُ يقدِّس الدُّنيا، والمؤمن يُقدِّمُها لآخرته

الغرضُ مِنَ الاستفهامِ بـ (الهمزة) في الآية:

الهمزةُ في قولِ الكافر للمؤمن: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ استفهاميَّةٌ، خارجةٌ إلى معنى الاستبعادِ والإنكارِ والتَّكذيب، وفيها دلالةُ "الكفرِ والعنادِ"[2]، و"استفهام المنكِر السّاخر"[3] "على طريق التَّوبيخ"[4]، ويَرمي به إلى زعزعةِ يقينِهِ بالبعث وتوابعِهِ، ويُنكر عليه تصديقَهُ بذلك، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ، تكذيبيٌّ لتلك الأخبار الصّادقة؛ لذلك دخلت على حرفِ التَّوكيدِ في (إنك)؛ لتعمَلَ فيه عملَها، وإلّا لدخلَتْ على ضمير المخاطَب مباشرةً، هكذا: أأنت مِن المصدِّقين؟

عدمُ تأثُّرِ المؤمن ممَّن يسخر ويشكِّك في عقيدته يكون بحسب قوَّة إيمانِهِ

لطيفةُ تسليطِ الاستفهام على (إنَّ):

يفيدُ حرفُ التَّوكيد (إنّ) أنَّه مهما جهدَ الكافر في ذبذبة دينِ المؤمن وهَزِّ عقيدته؛ فلن يُفلح، فمَن ذاق حلاوة الإيمان بَعُدَ أنْ

مَن ذاقَ حلاوةَ الإيمانِ لا يعودُ إلى الكفر أبدًا

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 141.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 15.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 984.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 418.

يُؤثِّر فيه تشكيكُ مشكِّكٍ؛ ولذلك - والله تعالى أعلم - قَبِلَ الرَّسول ﷺ شرْطَ قريش حين اشترطوا عليه في صلح الحديبية: "أنَّ مَن جاء منكم لم نردَّهُ عليكم"[1]؛ وذلك لِثقته ﷺ أنَّ أحدًا مِمَّن آمن بالدين الحقِّ، وذاق لذَّةَ عدالتِهِ لا يعود إلى الكفر أبدًا، فقد "سُلِّط الاستفهامُ على حرف التَّوكيد لإفادة أنَّه - أي: القرين الكافر - بَلَغَه تأكُّدُ إسلام قرينه؛ فجاء يُنكر عليه ما تَحقَّق عنده، أي: إنَّ إنكارَهُ إسلامَهُ كان بعدَ تحقُّق خبَرِهِ، ولولا أنَّه تحقَّقه؛ لَما ظَنَّ به ذلك"[2].

دلالةُ مرجع الضَّمير في ﴿أَءِنَّكَ﴾:

ضميرُ الخطاب (الكاف) في قوله: ﴿أَءِنَّكَ﴾ يعود إلى المتكلِّم بهذا القول الكريم في الجنَّة، يحكي فيه خطابَ الكافرِ له في الدُّنيا، حين سأله سؤالَ المشكِّك: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بأنَّنا بعد الموت وهلاك أجسامنا نُبعَث، ونُحاسب؟.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لَمِنَ﴾:

لأهل الكفرِ حيَلُهُم لِتشكيك المؤمنين في دينهم

(اللام) في قولِ الكافرِ بالبعث لقرينِهِ المؤمن به: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ لامُ التَّوكيدِ، الدّاعمة لحرْفِ التَّوكيد (إنَّ) في قوله: ﴿أَءِنَّكَ﴾، والمعنى: أهو حقًّا مؤمنٌ موقِنٌ بتلك الدَّعوى دعوى البعثِ والحسابِ؟ وذلك لِما رآه الكافرُ، وعلِمَهُ مِن ثبات عقيدة المؤمن، فتفيد توكيد حيلته لِزَعْزَعَتِهِ عن تصديقه بالبعث والحساب.

دلالةُ اللّامِ في ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾:

أعظمُ إنكارٍ للكافر على المؤمن إيمانُهُ بالبعثِ والحساب

(اللامُ) في ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ لامُ العهد، وهم المؤمنون بالله تعالى وبوعده ووعيده، وهو التَّصديقُ بالرَّسول والرِّسالة، والبعث والحساب، فهذا مكمنُ إنكارِ القرينِ الكافر، وأعظم إنكار له على

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية: 3/ 1411 برقم: (1784).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 116.

قرينه المؤمن هنا في الدُّنيا، ويتوجَّه إلى ذلك بخاصَّة، ولا يُزعجه كما لا يُقلقه تصديقُهُ بشيءٍ آخر قد يدعوهُ إليه قرينُهُ المؤمن.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ باسم الفاعلِ:

رسـوخُ عقيدةِ المؤمن تمكِّنُهُ مِن مقاومة تشكيكِ الكافر في يقينِهِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغة اسمِ الفاعل في ﴿ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ على ثباتِ المؤمنِ على تصديقِهِ بالبعثِ والحسابِ والثَّواب والعقاب في الآخرة، ومداومته العملَ له، وذلك ما يَرُدُّهُ الكافر، ويرفُضه، بل ويتجاوز ذلك إلى محاولة التَّشكيكِ فيه، فبينما يَجهدُ الكافرُ جُهدَهُ في زعزعة إيمانِ المؤمن وتصديقه - بدلالة المضارعةِ في الفعل ﴿يَقُولُ﴾ - يدوم المؤمنُ على تصديقِهِ، ورسوخ يقينِهِ بدلالة الاسم ﴿ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾، وكأنَّ بينهما مطابقةً من هذا الوجْهِ، وذلك يُنبِّهُ المؤمنين إلى حتميَّة تأكيدِ عزمِهم وترسيخ تصديقهم أشدَّ ممّا يحاول الكفار زعزعةَ يقينِهم وردِّهم عن دينهم.

نكتةُ حَذْفِ المتعلَّق في: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾:

الـكـافـرُ يحقدُ على الدّين الحقِّ على حدِّ تَحاشيه ذكره

لم ينصَّ النَّظمُ الكريم على متعلَّق ﴿ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾، وهو "أنَّ هناك بعثًا وحسابًا، وثوابًا وعقابًا، وجنَّةً ونارًا"[1]، وذلك "ما ينبئ عنه قولُهُ سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾"[2]، ونُكتةُ حَذْفِهِ الإشارةُ إلى حِقد القرين الكافر على الدّين الحقِّ، وأنَّه لا يودُّ ترديدَ متعلَّق التَّصديق، ولا النُّطق به أصلًا، ومِن لطائف حذفِهِ إفساحُ مجالِ الإنكار، لِما يشمل إنكارَ وحدانيَّةِ الله تعالى، وإنكارَ صِدْق الرَّسول الذي بُعِثَ فيهم، وإنكارَ صِدق الشَّريعة الَّتي جاء بها، وإنكارَ صِدق الوعيدِ بالبعث، وإنكارَ ما يترتَّب عليه من حسابٍ، ثمَّ مجازاةٍ بالجنَّةِ أو النّار.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 85.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 418.

عِلَّةُ فصلِ جملة: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ عمّا قبلها:

تَكرارُ الاستفهامِ تفصيل بعد إجمال يُقَرِّرُ تَجذُّرَ كفرِ القرين

فُصِلَتْ جُمْلَةُ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ عن جملة: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؛ إذ "جملةُ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بيانٌ لجملةِ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، بيَّنت الإنكار المجمل بإنكارٍ مفصَّلٍ، وهو إنكارُ أنْ يُبعثَ النّاس بعد تفرُّق أجزائِهم، وتَحوُّلِها ترابًا بعد الموت، ثمَّ يجازوا"[1]، ويظهر هنا أنَّ تَكرارَ الاستفهام تفصيلًا بعد إجمالٍ يُقرِّر قضيَّةَ تأصُّل الكفر في نفس الكافر.

غرضُ الاستفهامِ بـ(الهمزة) في: ﴿أَءِذَا﴾:

مِن سوء أدبِ الكفّار إزاءَ المؤمنين تُهمتُهم باستقصارِ نظرِهم

الهمزةُ في النَّظم الكريم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ همزةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّكذيبيِّ، وكأنَّ القرينَ الكافر يُلجِئُ المؤمن، ويُلزمه الحُجَّة، ويَحتال على إثبات استبعادِ البعثِ بدليلٍ يَظنُّه منطقيًّا، هو البِلَى الذي يَصير إليه جسدُ الإنسان في القبرِ، وتلاشيه حتّى لا يبقى منهُ إلّا عظامٌ مبعثَرة مختلطة بِعظام غيره، فلا يُتَبَيَّنُ هذا من ذاك، "يقول... يريد أن يختدعَني بِلطافة قيادِهِ إلى سوءِ اعتقادِه: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، أي: بالبعث، يوبِّخني بذلك، ويَستقصِر باعي في النَّظر؛ استثارةً لِهمَّتي، وإلهابًا لنخوتي وحَميَّتي"[2]، وهذا منه سوء أدبٍ، وذلك ديدنُ الكُفر إزاءَ أهلِ الإيمان.

الغرضُ من الإسناد في ﴿مِتْنَا﴾:

عقيدةُ الكفّارِ قائمةٌ على الإنكار المطلق لعقيدةِ التَّوحيد

من عقيدةِ القرينِ الكافرِ - كما تبيِّنُهُ جملةُ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ - إنكارُ اللّه تعالى، وإنكارُ البعث والحساب والثواب والعقاب؛ لذلك يَسند الموتَ إلى ضميرِ الجماعةِ في جملة ﴿مِتْنَا﴾، وهو بصددِ الإنكارِ المطلقِ لمسائلِ العقيدةِ، ومنها أنَّ المُحْيِيَ المُميتَ هو اللّه تعالى،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 116.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.

فيتحاشى الاقترابَ مِنَ التَّفوُّهِ بما يُناقض دعواهُ، فيسند الموت إلى ضمير جماعتِهم، وقد ضَمَّ النَّظمُ الكريم الكافر القرينَ مع المؤمنِ في ضمير التَّكلُّم الجمعيِّ في جملة ﴿مِتْنَا﴾ لإيهامِهِ أنَّه يَودُّه، ويعتبرُهُ منه كنفْسِهِ، وكأنَّهما طرَفٌ واحدٌ لا خصمَيْن؛ استدراجًا له وإخجالًا، عساهُ يواطئُهُ على فكرةِ إنكارِ البعث والحساب، وتلك حيلةٌ مطويَّةٌ يتخابث بها كلُّ صاحبِ هوًى؛ ليزلفَ منها إلى اجتذاب خصمِهِ إلى فريقِهِ.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾:

العطفُ الصّالحُ لمعانٍ مختلفةِ الأزمانِ

في النَّصِّ على صيرورتِهم إلى ترابٍ وعظام بعد ذِكرِهِ الموت تأكيدُ إنكارِ الجزاءِ المبنيِّ على إنكارِ البعث"[1]، فكلاهما مستبعَدٌ عنده بهذا المنطقِ غيرِ السَّديد، والواوُ في جملة: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ واوُ العطفِ، الجامعةُ بين الموت والكون ترابًا في الاستبعاد والإنكار التَّكذيبي للبعث، وصيرورتُهم إلى ترابٍ أدخلُ في الاستبعاد لتَحَلُّلِ الجسدِ، وتَفكُّكه، وتَفتُّته، ومن الدِّقَّة في العطف بهذه الواوِ أنَّها لا تُؤذِن برخاوةِ المدَّة الزَّمنيَّة مثل (ثم)، ولا بتَسارُعِها مثل (الفاء)، فجاءت تاركةً هذا وذاك لظروف تحَلُّلِ كلِّ جسمٍ في قبرِهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي:

تـأكـيـدُ تـمـامِ الـبِـلَى، وفكـرة المـشـركـين في استحالةِ البعثِ في الظّاهر

التَّعبيرُ بالكون الماضي في سياق الآية الكريمةِ بجملة: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾، يَدعَمُ قضيَّةَ الإنكارِ الَّتي يُلِحُّ عليها القرينُ الكافر؛ إذ يَقْطَع الكونُ الماضي بتَحَقُّق البِلَى، والصيرورةِ إلى ترابٍ وعظام؛ لذلك عَبَّرَ به القرينُ دون لفظ (صِرْنا)، أو (أصبحنا)؛ وذلك لِما في الصيرورةِ والإصباح من التَّقارُبِ، وهو ما لا يريدُهُ الكافر في تأكيد تشكيكِهِ من خلال التَّلويحِ بتباعدِ الزَّمان، وإيغالِهِ في القِدم، فالتَّعبير بالكون الماضي يؤكِّد تمامَ البِلَى، واستحالةَ البعث عنده.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 192.

يقول ابنُ عطيَّة: "وعبَّر عن قول هذا الرَّجل بالمُضيِّ مِن حيث كان أمرًا متيقَّنًا حاصلًا لا محالةَ"(1)، فـ (كنا) تعني: "كونًا راسخًا"(2).

علَّةُ ورودِ اسمِ كان ضميرَ تكلُّمٍ:

استحالةُ البعثِ بمنطقِ كثرةِ النّاسِ الذين يصيرون ترابًا وعظامًا

أسندَ النَّظمُ ضميرَ المتكلِّمين في الفعل (كنا)؛ إذ أخبرَ بكونِهم جميعًا ترابًا وعظامًا، وهو يقصد نفسَهُ ومخاطَبَهُ المصدِّقَ وغيرهما مِن النّاس؛ إلحاحًا على فكرةِ الفناءِ الَّذي لا يترتَّب عليه بَعثٌ ولا حساب بمنطقِه الفاسدِ، وفي ضمير الجماعةِ في قوله: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ إلماحٌ إلى أنَّ تلكَ الكثرةَ الكاثرة من الناس - الذين يصيرون ترابًا وعظامًا - تجعل البعثَ والحسابَ مستحيلين، وذلك صُلبُ قضيَّتِه الَّتي يجهدُ في التَّدليل عليها.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿تُرَابًا﴾ دون (فناء):

استبعادُ الكافرِ البعثَ والحسابَ قياسًا على قدرةِ البشرِ المحدودةِ

أوثرَ التَّعبيرُ بـ ﴿تُرَابًا﴾ دون (فناءً) وما إليها - لِما لِلتُّراب مِن خاصّية الحِسّيَّة؛ إذ يُبصرُهُ الرائي، ولا يتأتَّى له إنكارُه، أمّا (العدم) و(الفناء)؛ فأُمورٌ معنويَّة لا تقع تحتَ البصرِ، فيكون في تصوُّرها وتصديقها تَوَقُّفٌ، وهذا ما يتحاشاه في دليلِه على تأكيد فكرتِه، وفي التَّعبيرِ بالتُّرابِ كنايةٌ عن خِفَّتِه ذَرْوًا في الهواء؛ ممّا يدعم فكرةَ الكافرِ بعدم إمكانِ البعثِ والحساب، وذلك لقياسِه إمكانَ ذلك بقدرة البشرِ المحدودةِ، لِعَماه عن قدرة اللّه تعالى المطلقة.

الغرضُ من تنكيرِ ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾:

جهلُ القرينِ بأنَّ إعادةَ الخَلْقِ أيسرُ مِن الخلقِ أوَّلَ مرَّةٍ

في تنكيرِ ﴿تُرَابًا﴾ كنايةٌ عن تمام تَحلُّل اللَّحم، وتنكيرُ (عظامًا) يوحي بضحالتها، ويُسهم في إضفاء صفاتِ الضَّعف والبلى عليها، ولذلك وُصِفت في موضع آخر بأنَّها ﴿نَّخِرَةً ۝١١﴾ [النازعات: 11]، مِن: نَخِرَ العظمَ؛ إذا بلي، فصارَ فارغَ الوسطِ كالقَصَبَةِ، وذلك كلُّه يَدعم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 473.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.

استحالةَ البعثِ والحسابِ مِن وجهة نظرِ الكافرِ، الَّذي يقيس الأمورَ بمقياس قدرةِ البشرِ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَعِظَٰمًا﴾:

(الواو) في قولِهِ: ﴿وَعِظَٰمًا﴾ عاطفةٌ، تُشْرِكُ العظامَ مع التُّرابِ مصيرًا للإنسان بعد الموتِ؛ لأنَّ كونَهم ترابًا يَستلزم كونَهم عظامًا.

الغرضُ مِن عطْفِ العظامِ على التُّراب:

استحضارُ صورةِ العظامِ الباليةِ يؤكِّد به استحالةَ بعْثِ صاحبها

قد يبدو للمتلقّي غناءُ ﴿تُرَابًا﴾ عن (عظامًا)؛ لأنَّه يستلزمها، ويقتضيها، فما دام لحمُهُ قد تحلَّل، وصار ترابًا، فلا بُدَّ لِعظامِهِ أنْ تتفكَّك، وتتبعثر، وتتداخل، وتختلف مع عظام غيرِهِ، لكنَّه ذكر (عظاما) على استقلالِها بعد ﴿تُرَابًا﴾؛ وذلك لِفعل صورةِ العِظام المبعثرةِ في النَّفس فِعلها.

لطيفةُ تقديمِ ﴿تُرَابًا﴾ على (عظامًا):

تدرُّجُ المعاني صعودًا أو نزولًا سمةٌ قرآنيَّةٌ دقيقةٌ

قَدَّم النَّظمُ الكريمُ كونهم ﴿تُرَابًا﴾ على (عظامًا) مطابَقةً للواقع؛ إذ تَحلُّلُ بدنِ الميِّت يبدأ مِن ذوبان لحمِهِ في التُّراب واختلاطِهِ به، وصيرورته ترابًا منه، ويبقي العَظمُ أمدًا أطولَ بِحُكْم صلابتِهِ؛ فيتأخَّر بِلاه عن اللَّحم والعَصَب؛ لذلك جاء ذكرُهُ مؤخَّرًا في الذِّكر.

نكتةُ تَكرارِ همزةِ الاستفهام في ختم الآية:

مِنَ الكلام ما يُهيَّأ له بعناصرَ لغويَّةٍ، ولولاها؛ لَما تهيَّأ

جاءت (الهمزة) مكرَّرةً ثانيةً في قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، وإن كانت لتأكُّد إنكارِ البعثِ المستفادِ من الهمزةِ قبلَها في قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، فإنَّها إلى ذلك تُلِحُّ على معنى التَّعجُّب من ذلك المعتقد، الذي يعتقدُهُ العبدُ المؤمنُ المصدِّق بالبعث والحساب.

والذي هيَّأ لذلك التَّعجُّبِ البالغِ تعديدُ مراحل الموت والبلى والتُّراب والعظام المذكورة قبلَهُ، وما كان يتأتّى القولُ: أإنَّك لَمِنَ المصدِّقين؟ أإنّا لمدينون؟ بدون ذِكر التُّراب والعظام.

لطيفةُ بناءِ: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ على التَّقديم:

مِـن عـادةِ أهلِ الباطل احتقارُ أهـلِ الـحـقِّ تثبيطًا لِهِمَمِهِم

بناءُ الجملةِ على تقديم الضَّمير في ﴿أَءِنَّا﴾ يدعمُ الإنكارَ، ويوغِل في التَّعجُّب بِذِكر مجازاة مَن رَمَّ، وبَلِيَ، كما أنَّ في ذِكر ﴿أَءِنَّا﴾ هنا محاذاةً لقولِه هناك: ﴿أَءِنَّكَ﴾ في جملة: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، ومن لطائفِ تَكرارِه التَّأكيدُ بالإشارةِ لِقرينِه المؤمن بأنَّ كلَّ عاقلٍ جديرٌ بأنْ يُكذِّب بِما أقررتَ به لِبُعْدِه، أو إلى أنَّه مُكذَّبٌ به، ولو كان مؤكَّدًا[1]، وفي ذلك تُهمةٌ لِعقلِه، واستصغارٌ لِفكرِه؛ جريًا منه على عادة أهل الباطل في احتقارِ أهلِ الحقِّ، وذلك الاحتقارُ ظاهريٌّ فقط، يحمل عليه حقدهم، ويثبِّطون به من هِمَّة المؤمنين في الثَّبات على دينهم، والذَّود عنه.

معنى (اللام) في خبر (إنَّ):

تـأكـيـدُ الـقـريـنِ لـلـجـزاء بعد البعثِ

(اللام) المزحلقةُ في الخبرِ ﴿لَمَدِينُونَ﴾ مفيدة التَّوكيد، كأنَّه يقول: أإنّا لمدينون ومحاسبون بعد تمام بِلى أجسامنا؟ فتكون (اللام) داعمةً لِقضيَّة الإنكار، مقرِّرةً في النَّفس تلك الحقيقة، وقد استفهَم استفهامًا تقريريًّا بالنَّفي، يعتقد بذلك أنَّ العبدَ المؤمن يُقِرُّ له - بتلك الوسائل - بنفي البعث والحسابِ، ولكن هيهات!

دلالةُ التَّعبيرِ بالدّين:

لـفـظُ (الـديـن) ومـشـتـقّـاتـه أوسعُ دلالةً من مرادفاتِهِ كلِّها

آثرَ النَّظمُ الكريم - في ترجمة المعنى الذي عبَّر عنه القرين الكافر في لُغَتِه هناك - استعمالَ أدقِّ كلمةٍ للتَّعبير عن المجازاة والمحاسبة والمُداينة، فقال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ لأنَّها مادَّةٌ لغويَّةٌ ثريَّةٌ، تحتمل معنى (الدّين) ومعنى (الدَّيْن)، بما فيهما من دلالةِ الخضوعِ[2].

فعبَّر القرينُ بـ (مدينون)، أي: أإنّا لمُحاسَبون، والدينونةُ هي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.
(2) الجاحظ، الرسائل: 1/ 187.

الحسابُ، أي: أنحيا بعد أن نصيرَ ترابًا وعظامًا، ثم نُحاسبُ، ونُدانُ، ونُعذَّب في النّار كما يقول محمَّد بهذا؟

دلالةُ التَّعبيرِ باسم المفعول:

الإنكارُ على القرين الكافر ما يفرُّ منه

صوغُ مادَّة (الدَّيْن) اسمَ مفعولٍ في الآية الكريمة: ﴿لَمَدِينُونَ﴾ متَّسِقٌ مع غرض القرينِ الكافرِ؛ إذ إنَّ اسمَ المفعول يُلمح إلى خضوعِهم لغيرِهم ليجازيَهم بأعمالِهم، وهو اللّهُ تعالى الَّذي يُنكره القرينُ، ويُنكر البعثَ والمحاسبة والمداينة والمجازاةَ؛ ولذلك تَحاشَى ذِكرَهُ بصيغةِ مفعولٍ منسوبٍ إلى الله، فلم يقل: (أإنّا لمدينون يداننا الله تعالى)؟.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي في الآية:

المتشابهُ القرآنيُّ آيةُ الدِّقَّةِ، وأحدُ دلائل الإعجاز

جاءتِ الآيةُ الكريمة هنا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، وجاءت في أوَّل السّورة الكريمة: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الصافات: 16]؛ "لأنَّ الموضعَ الأوَّل حكايةُ كلام الكافرين، وهم في الدنيا منكرونَ للبعث، والموضع الثاني قولُ أحد الفريقين لصاحبِهِ عند وقوع الحسابِ والجزاء وحصوله فيه ﴿كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات: 51] ينكرُ الجزاءَ، وما نحن فيه، فهل أنتم تطلعونني عليه: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، قيل: كانا أخوين، وقيل كانا شريكين، وقيل: هما بطروس الكافر، ويهوذا المسلم، وقيل: القرين هو إبليس"[1].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿أَءِذَا﴾ وبلاغتها:

مآلُ القراءاتِ إلى الاستفهامِ الإنكاريِّ

اختلفَ القرّاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا﴾ وقولِهِ: ﴿أَءِنَّا﴾: فقرأ نافعٌ والكسائيُّ ويعقوبُ بالاستفهامِ في الأوَّلِ: ﴿أَءِذَا﴾، والإخبارِ في الثّاني: ﴿إِنَّا﴾، وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو جعفر بالإخبارِ في الأوَّلِ: ﴿إِذَا﴾، والاستفهامِ في الثّاني: ﴿أَءِنَّا﴾، وقرأ الباقونَ بالاستفهامِ فيهما[2]،

(1) الكرماني، البرهان، ص: 212.
(2) القاضي، البدور الزّاهرة، ص: 268.

فأما علة الاستفهام والخبر: فحجة من استفهم في الأول والثاني أنه أتى بالكلام على أصله، في التقرير والإنكار، أو التوبيخ بلفظ الاستفهام، ففيه معنى المبالغة والتوكيد، فأكَّد بالاستفهام هذه المعاني، وزاده توكيدًا بإعادة لفظ الاستفهام في الثاني، فأجراهما مجرًى واحدًا. وحجة من أخبر في أحدهما واستفهم في الآخر أنه استغنى بلفظ الاستفهام في أحدهما عن الآخر؛ إذ دلالة الأول على الثاني كدلالة الثاني على الأول، وأيضًا فإن ما بعد الاستفهام الثاني في أكثر هذه المواضع تفسير للعامل الأول، في (إذا)، التي دخل عليها حرف الاستفهام، فاستغنى عن الاستفهام في الثاني بالأول"[1]. ومُؤدَّى هذهِ القراءاتِ واحدٌ، وهو الإنكارُ.

(1) مكِّي، الكشف: 2/ 21.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»